العرب وبداية الزمن الأمر

24-8-2003

إن العرب يقفون الآن أمام مرحلة حاسمة فى تاريخهم سيترتب عليها وضعهم ومستقبلهم لأجيال قادمة، كما أكدت الحرب على العراق بكل ملابساتها وتعقيداتها أن كل شئ وارد فى هذه النقطة الزمنية الفاصلة. ولذا لم يكن مستغرباً أن تكرر واشنطن مقولاتها بشأن إعادة ترتيب الأوضاع فى منطقة الشرق الأوسط، ولها الحق فى ذلك طالما عجز أصحاب الشأن (العرب) فى القيام به.

بقلم خليل العناني

ارثة العراق فتحت الأبواب المغلقة فى منطقة "الشرق الأوسط" أمام رياح التغيير الأمريكية، وسواء رضينا أم لم نرض فهذه هى الحقيقة، فالولايات المتحدة عازمة وبكل حزم على إعادة هيكلة البنية العربية المترهلة بشكل أو بأخر. ولم تجد الولايات المتحدة غضاضة فى الإعلان عن نيتها فى تغيير الخريطة العربية كى تتلاءم مع أهدافها ومصالحها ومن وراءها حليفتها إسرائيل، بل وتجاهر بذلك ليل نهار دون مواربة أو مداهنة.

وما يجرى فى العراق الآن لا يبتعد كثيراً عن منطق الوصاية والانتداب اللذين ذخرت بهما العقود الأولى من القرن العشرين، ولكنها هذ المرة أكثر فجاجة وجرأة، فالولايات المتحدة تجاهر بنواياها تجاه المنطقة وتوجه التحذيرات لكل من يجرأ على الهمس أو الاعتراض، وهو ما أكدته تحذيرات كولن باول لسوريا أثناء زيارته لها مؤخراً.

وجاء تعيين بول بريمر كحاكم مدنى للعراق كى يزيل الشكوك حول الرغبة الأمريكية الجامحة لترتيب الأوضاع بما يتناسب مع عقيدتها المحافظة الجديدة، وتكمن الكارثة فى ما نلحظه فى هذا الصمت العربى غير المسبوق على المنحى الأمريكى المتعجرف رغم تأكد الجميع من حقيقة النوايا الأمريكية تجاه كل دولة علي حدة.

ولربط الخيوط ببعضها يمكن القول أن منطقة الشرق الأوسط تعيش حالياً على صفيح ساخن، تتلخص ملامحه في الآتي:

على صعيد القضية الأزلية (القضية الفلسطينية) فقد دخلت عملية التسوية السياسية مرحلة الإنعاش السياسي، وذلك نتيجة لسياسات التعنت الإسرائيلية التي سكبت علي النار، كما نجحت إسرائيل في اختراق الصف الفلسطيني ونفخت فيه روح الفرقة، ولا يتوقع أحد ما ستحمله الأسابيع القليلة القادمة.

وعلى صعيد القوى الإقليمية تتعرض سوريا لابتزاز أمريكى واضح يحاول أن يفقدها وضعها الإقليمى ويجردها من المطالبة بحقوقها المشروعة فى الجولان، ووصل التبجح الأمريكى ذروته فى تحذير سوريا من مغبة تعرضها لمصير مشابه لما حدث فى العراق إذا ما استمرت فى رسالتها الثورية على حد وصف صقور واشنطن. وامتدادا لهذا النهج المتعجرف رفضت إسرائيل المبادرة السورية بالدخول المباشر فى المفاوضات الثنائية التى أصابه العجز والشلل منذ صعود اليمين الإسرائيلى لسدة الحكم فى إسرائيل. كما تتعرض السعودية لضغوط غير مباشرة رغم خطها المعتدل والواقعى فى حركتها الخارجية، إلا أن الداخل السعودى ما زال يؤرق مسئولى واشنطن بصورة واضحة، وليس أدل على ذلك من زيارة باول الأخيرة للسعودية. وتحاول مصر إمساك العصا من المنتصف ولكنها أيضا تظل فى بؤرة الاهتمام الأمريكى الهادف إلى تحسين الأوضاع الثقافية والاجتماعية بها كى تحتفظ بوضعها كحليف استراتيجى لواشنطن في المنطقة.

كما استجابت ليبيا للغوط الغربية التي وصلت في نهاية الإمر إلي الإقرار بخطيئة لوكيربي، وبدأ مسلسل الابتزاز الغربي ولا يعلم أحد أين سيتوقف قطار التعويضات الليبية.

أما منطقة الخليج العربى فينتظرها مصير غامض من الناحيتين السياسية والاقتصادية خاصة فى ظل إحكام السيطرة الأمريكية على القدرات النفطية العراقية الهائلة، وهو ما قد تستخدمه واشنطن للضغط على هذه البلدان ومطالبتها بإدخال إصلاحات سياسية وثقافية تتكيف مع الواقع الأمريكى والإسرائيلى الجديد فى المنطقة بحيث تقبل بالوجود العسكرى الأمريكى فى العراق وتدخل فى علاقات طبيعية مع إسرائيل.

وتتوجس إيران من النوايا الأمريكية تجاهها خاصة بعد أن تستقر الأمور فى العراق، وهى تعلم تماماً أن أحد أهداف الحرب على العراق كانت تتعلق بتهذيب السلوك الإيرانى فى منطقة الشرق الأوسط عموماً والخليج على وجه الخصوص، وتتناول الأوساط الأمريكية إيران حاليا باعتبارها المحطة التالية في السلسلة الشرق أوسطية.

وتنظر تركيا بعين الحيطة والحذر لمستقبل علاقتها مع واشنطن خاصة بعدما خذلتها فى الحرب على العراق وحاولت مساومة رجال البيت الأبيض للمساهمة فى الحرب، وربما ترتمى مستقبلا فى أحضان واشنطن لإبداء الاعتذار عما بدر منها أثناء الحرب الأخيرة.

ورغم الإقرار بحالة الضعف العربى الراهنة إلا أن هذا لا يعنى انتظار المحتوم والسكوت على ما يحدث، كما أنه لا يعنى الانتظار حتى تقوم الولايات المتحدة بالأخذ بأيدينا –كأطفال صغار- نحو الديمقراطية والحرية حسب إدعاءاتها، فالجميع يعلم ما يجب عمله والكل يعرف مواطن الضعف المتوطنة فينا ولكن لا أحد يقوى على مواجهة نفسه بهذه الحقيقة القاسية.

ولعل من الواقعية الاعتراف بحقيقتين كلتاهما مريرة وهما: حالة الضعف والعجز التى تهيمن على العرب ووصلت إلى ذروتها مع إعلان الحرب على العراق، والثانية وهى الغطرسة الأمريكية غير المسبوقة والتى تسعى لبلورة هيئة الكون من جديد وفق رؤيتها وحسب مقاساتها، وهى عنجهية تذكرنا بعنجهية هتلر موسولينى والتى ترى الكون من منظور واحد وأحادي، وتستند فى ذلك على قوتها العسكرية والاقتصادية التى لا تضاهيها قوة مناظرة حتي ولو كانت مجتمعة.

وتفرض هاتين الحقيقتين على العرب التحرك عبر مستويين لا ينفصلان عن بعضهم البعض وهما: المستوى القطرى فيما بين الدول العربية بحيث تتم مواجهة هذا الواقع المتأزم والذى لا ينبغى التمادى فى السكوت عنه أكثر من هذا، لأنه إذا حدث فلن تقوم للعرب قائمة بعد اليوم. أما المستوى الثانى فهو المستوى العالمى بحيث يتم التركيز على مسألتين هما: استغلال الموقف الأوروبى المعلن شبه المعارض للتفرد الأمريكى وتدعيمه بنظرة واقعية، وأن يتم التعامل مع الولايات المتحدة ليس من منطق الند للند ولكن على الأقل من باب المصالح المشتركة وبنظرة أكثر براجماتية، وذلك رغم انحسار حيوية هذه المصالح بعد كارثة العراق وما نجم عنها من وجود إجبارى للولايات المتحدة فى المنطقة العربية.

وعلى الرغم من وجود بعض الأصوات العربية الفكرية والمثقفة التى ترى أن الانتصار الأمريكى –المنطقي- على العراق بمثابة الفتح العظيم لأسوار بغداد، وتهافتها على الترويج للرسالة الإعلامية الأمريكية المضللة -حتى بدون قصد- إلا أن كل عاقل يدرك خطورة التواجد الأمريكى على وضع المنطقة مستقبلاً شكلاً ومضموناً، وتأثير ذلك بالطبع على الدور الإسرائيلى المتوقع فى المنطقة خلال المرحلة القادمة.

ويكفى للتدليل على الرؤية الأمريكية الجديدة للمنطقة أن نقرأ ما تعج به كبريات الصحف الأمريكية ومنتديات الفكر والتحليل حول الشكل المفترض الذى تسعى الولايات المتحدة لتكوينه وفرضه فى المنطقة بمختلف الوسائل العسكرية والاقتصادية والإعلامية، ولذا فالمبالغة حول هذا السعى الأمريكى مرفوضة لأن الوقائع والحقائق التى يلحظها الجاهل قبل المثقف واضحة وعديدة.

ولعل ما يثير الحنق والضيق أن نرى بعض الأقلام العربية تتحدث عن مزايا الفتح الأمريكى العظيم وانعكاساته على بلدان المنطقة، وهو فى الواقع ما قد ينم عن ضعف الأمل فى الإصلاح العربى ما دام هناك أصحاب هذه الرؤية، ورغم الاتفاق على مساوئ النظام العراقى السابق إلا أن هذا لا يعنى استخدامها كخنجر لذبح بقية البلدان العربية، فالحرب لا تفرق بين حاكم أو محكوم والتغيير الأمريكى المطلوب ليس شكلياً فقط ولكنه موضوعيا وجوهريا ويتعلق بأنماط التفكير والمعيشة والثقافة وكل ما يمت للهوية بصلة.

ورغم حالات الاستياء التى تعم الشعوب العربية من تهرؤ أنظمتها وفشل النخب فى تحقيق مطالب هذه الشعوب، إلا أنها ترفض أى تغيير خارجى لإدراكها لحقيقة هذا التغيير ومعرفة مقاصده وأهدافه، وإذا كنا لا نؤمن بنظرية المؤامرة، إلا أن ما نلحظه ليس فى حاجة لمثل هذه النظرة لأنه أكبر منها بكثير، فالكل يعرف المنطق المادى البحت الذى يغلف الفكر الغربى خاصة الأمريكى ويتحكم فى حركته الخارجية ولسنا فى حاجة للتدليل على ذلك لأن التاريخ يذخر بأمثلة عديدة حول الرفض الأمريكى لقيام الديمقراطية فى عدد كبير من بلدان أمريكا الجنوبية وإندونيسيا وغيرها من البلدان، لذا يكون من باب السخف والاستخفاف بالعقول التذرع بحجج رياح الحرية والديمقراطية الأمريكية الواهية.

وخير مثال على ما نقول أن الولايات المتحدة حين كانت تولى اهتماماً لشكلها الخارجى وتبدى احتراماً لتاريخها وثقافتها، كانت بمثابة قبلة يحج إليها كل متلهف لرياح الحرية الحقيقة ويقف ببابها كل عطشان للإبداع والخلق، وكانت الرسالة الأمريكية تصل بوضوح وبتأثير أكبر بكثير مما هو عليه الآن، ولكن بعدما تخلت الولايات المتحدة عن رسالتها هذه وكشفت عن وجهها الأخر القبيح، لفظتها كل الشعوب ولم يعد يثق أحد فى القيم الأمريكية التى أبهرت العالم بسماحتها وبنزاهة حكمها وعدالتها.

وخلاصة القول أن العرب يقفون الآن أمام مرحلة حاسمة فى تاريخهم سيترتب عليها وضعهم ومستقبلهم لأجيال قادمة، كما أكدت الحرب على العراق بكل ملابساتها وتعقيداتها أن كل شئ وارد فى هذه النقطة الزمنية الفاصلة. ولذا لم يكن مستغرباً أن تكرر واشنطن مقولاتها بشأن إعادة ترتيب الأوضاع فى منطقة الشرق الأوسط، ولها الحق فى ذلك طالما عجز أصحاب الشأن (العرب) فى القيام به.

للعودة للأعلى